# الشيخ محمد عبده (*)

. . . وشفّ سحابي عن جلال رائع يضطرب القلب له أذكرني روعة السحابة التي كان يهبط فيها مَلَك الوحي ؛ ليست في نفسها آية ولكن الآية فيها

وظهر لي وجه الشيخ وما أدراك من الشيخ ثم ما أدراك من هو (١) . رجل كان في تركيب العالم الاسلامي أشبه بالجبهة من جسم المؤمن ؛ هي مَجلى نور الإيمان وأعلى ما يرتفع للأعين ولكنها مع ذلك أول ما يسجد لله من هذا الجسم كله

خلق فصيحاً مُبين اللهجة لأن لسانه أُعدّ لتفسير معجزة الدنيا في هذه اللغة فكان لسانه ولاغروَ معجزة في الألسنة ؛ وكان له بيانٌ ينبَعث من طبعه المصقول كالشعاع الذي تُوامِضُكَ به المرآةُ اذا انقدحت جَمْرةُ الفلَك عليها (٢)

وكان له عقلٌ لو وُزِنَ في رُجحانه العُدّ بين العقول من موازين التاريخ ، وقلبٌ إن يكن في جنبيه كالقلوب التي وُضِعَتْ

---

(*) من كتاب ( السحاب الاحمر ) للكاتب الكبير السيد مصطفى صادق الرافعي ، وقد صدر من مطبعتنا في هذا الشهر

(١) قال الراغب: كل موضع ذكر في القرآن « وما أدراك » فقد عقّب ببيانه نحو « وما أدراك ماهيه ، نار حاميه » وكل موضع ذكر فيه وما يدريك لم يعقبه بذلك نحو « وما يدريك لعل الساعة قريب » . قلنا وهذا من أدق معاني الاعجاز فان « ادراك » صيغة الماضي والماضي مكشوف معروف لانه وقع ولكن يدريك صيغة المستقبل والمستقبل محجوب فتأمل وكرر النظر فان المقام لا يتسع هنا

(٢) كناية عن الشمس وتوامض تبرق

على مُنحدَر المعاني الأرضية فانه كان دون القلوب على مَهْبَط السموات (١)

رجلٌ لم يُخلق من قبل زمنه لأن الأقدار المُصَرِّفَة ذخرته للقرن الرابعَ عَشَرَ تجعله وأصحابه النهضةَ الثالثة في الإسلام (٢) وكتبت له أن يكون الكنزَ الثمين الذى يُفجأُ العالمُ بانكشافه ليعود القديمُ المُبْدَعُ الذى كاد يُنسى فيتمكنَ في الأرض بأسلوب جديد. وما يُدريك لعل هذا الحكيم الفَذّ في علمه وعمله وذكائه وإصلاحه سيكون التمثالَ العقليّ المُشرِف على الأجيال، يفصل في تاريخ الإسلام بين ثلاثة عشَرَ قرناً مضتْ وثلاثةَ عشرَ قرناً تأتي؛

ولقد كان في تفسير كتاب الله رجلاً وحده على بُعد عصره من فجر الإسلام؛ فكان يحمل في رأسه ذهناً كآلة اللاسلكيّ تهبط عليه من أقاصي الدهر شرارةُ النبوّة، فاذا تكلم في آيةٍ رأيت كأنما تتكلمُ الآية نفسُها على مَلأ العقل بين مَشارق الارض ومَغاربها

ولست أدرى على أيِّ روح نَبَتَ هذا الرجل ولكنّ الذي أعرفه أنه حين أثمر فنَضجَ فَحَلاً أذاقَ الناسَ من ثمره طعمَ مُعجزة الفكر العربيّ

«*»

نظرتُ الى عينيه ذات مرة فخُيّلَ إليّ أن فيهما رهبةَ الأسد

(١) ليس همه الا المعالي ومصالح الخلق (٢) نهضة الاخلاق زمن الصحابة والتابعين، ثم نهضة العلم من بعدهم، ثم نهضة العقل الاسلامي التي كان يدعو اليها الشيخ رحمه الله

حين يُجلّي بنظرة كبريائه [١] ليدلّ على أنه الأسدُ لاغيرُه ، فمددتُ النظرَ اليهما فاذا رَوْعةُ إنسان هو أرفعُ من إنسانيتنا واذا أنا ألمحُ فيهما ذلك الشعاعَ الغريب الذي ينبعث من أعين الحكماء ليصل بين السرّ الكامن في المعقول والسر الكامن في العقل ، وكأنه استشعر ذلك فتبسّم ، فكان لنظرته جلال سماوىٌّ رحيم أشرق على نفسي كما تُشرق على روح الطفل ابتسامةُ أصله الانساني

كان منطوياً على حقيقة روحانية يسطع ضياؤها في عينيه وينتشر على ما حوله فلا يشعر من يجلس إليه أنه جالس مع الرجل ولكن مع النفس العالية التي هي فيه [٢] ؛ وكان أعظمَ هيبةً من الملوك لأن هؤلاء يحيطون أنفسهم بالديوان والمواكب والأسلحة وكثيرٍ من ضُروب التوقير والتعظيم أما الشيخُ فكنت تراه حيث رأيتَه كالمحراب حيث يكون لا يقف عنده الا من وقف ليتخشّع ، وما ذكرتُه إلا ذكرت قول القائل : في هذه الصورة الآدمية آدمُ والملائكةُ له ساجدون

(*)

(١) اي برفع بصره وينظر لنظرته الشديدة

(٢) قابلت الشيخ رحمه الله في الجامع الازهر مرة من المرات واستأذن عليه طالب من نوابغ الطلبة وأذكيائهم . فلما مثل بين يديه وقف كما يقف المصلي واضعاً يديه أسفل صدره راميا بطرفه الى الارض وتكلم كالمناجي المضرع حتى فرغ وانصرف . فأعظمت ذلك . ولما خرجت لحقت به وكلمته فيه فقال : وأنا أنكرت من جلوسك الى جانب الشيخ تلك الجلسة ما أنكرت أنت من وقوفي على تلك الهيئة . لو تعلم أن أحدنا لا يقف أمام هذا الرجل الا كما يقف العالم ازاء كتاب نادر مضى يفتش عنه عدة سنين فلما رآه سجد لله شكرا وأنت تحسبه يسجد للكتاب

كانَ هذا الإمامُ الفذُّ في قوة من ربه كقوة الجبل يحملُ ما يحمل ولا يتلوى ، وفي سَعَة من طبعه كاستفاضة البحر يَغمرُ ما يغمر ولا يتغير ، وفي صَراحة من نفسه كاستطارة النهار يطلع كما يطلع ولا يخفى ؛ فهو رجل لكنه فكر من أفكار السماء ، وهو جسمٌ لكنه عَضلَة من عَضلات الطبيعة ، وهو انسانٌ لكنه حقيقةٌ من حقائق الكون . يصفه الناسُ بأنه الرجل الحكيم الذي أوتيَ سرَّ الحكمة لينبُغَ به ، ويصفه التاريخ بأنه احياءُ المجدِّدة التي وهبت سرَّ العَظَمَة لتعملَ لها ، وتصفه الحقيقة بأنه العقل المفسِّر الذى اتصل به طرَفُ السر الأعلى ليتكلمَ عنه وليعملَ له وليبغَ فيه

اذا كان فى بعض جوانح الأرض أمكنةٌ نادرة مقدَّسة هى قلبُ الدنيا الذى أودعه الله سرَّ التأله ففي بعض جوانح الناسَ قلوب نادرة هي كتلك الأمكنة . ولقد كان العالم الإسلامى كله يتصل من قلب الشيخ العظيم بمَنسك فيه معنى كعبى الكعبة اذ تُولِّى شطرَها كلُّ وجوه المؤمنين مصطفى صادق الرافعى

---

﴿ في العدد الآتى من الزهراء ﴾

فصلٌ ممتع أنيق لا ديب هذا العصر الكاتب الأكبر الامير شكيب أرسلان بعنوان « ما وراء الأكمة ؟ » ومقال بعنوان « إيضاح وإصلاح » للبحاثة الشهير الاستاذ السيد حسن حسني عبد الوهاب مزين بصورة فطوغرافية لخط المعز بن باديس أمير القيروان . ونقد لكتاب دوتي Doughty عن جزيرة العرب بعنوان « العرب وذهنية الغرب » بقلم قائم المقام العسكري فؤاد بك سليم . الى غير ذلك من الابحاث المهمة المتعدِّدة